بسم الله الرحمن الرحيم

الفوائد الدعوية من سورة الشعراء

من آية ٣٨- ٥١

نموذج دعوي من قصة موسى عليه السلام لإقامة الحجة وتأييد الله لأنبيائه وعناد الكافرين وثبات المؤمنين

بحث مقدم لمادة الدعوة في الكتاب والسنة

ماجستير في قسم الدعوة – السنة المنهجية– النظام مسائي

تقديم: عبد الرحمن السيد مصطفى

إشراف أ.د. عبيد السحيمي

تمهيد: عرض الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٨ – ٥١].

الوقفة الأولى

اجتماع المناوئين لدين الله على محاربة الدعوة

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ وكما في سورة الأعراف: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١١ - ١١٢]، وفي يونس: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يونس: ٧٩]، وفي طه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه: ٦٠]، وفي الشعراء: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٦ – ٣٧].

قال ابن كثير: " جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، قيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: خمسة عشر ألفًا. وقيل: سبعة عشر ألفًا وقيل: تسعة عشر ألفًا. وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا. وقيل: ثمانين ألفًا. وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم"[1].

وجاؤوا مرتبين باستعلاء واستكبار ليواجهوا دعوة موسى عليه السلام فقد قالوا لبغضهم: ﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه: ٦٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/١٤٠

فهذا الجمع كله لمحاربة دين الله ولكن الله تعالى بشر بهزيمتهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[القمر: ٤١– ٤٥]، وهي سنة باقية إلى قيام الساعة.

الوقفة الثانية

ضرورة مخاطبة كل الناس بالدعوة

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: استحثوا الناس على الحضور من كافة أنحاء البلاد[٢]، فنودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود[٣].

"فقوله: ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع بحيث نزلوا منزلة من يسأل سؤال تحقيق عن عزمه على الاجتماع ، والتعريف في ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ للاستغراق العرفي، وهم ناس بلدة فرعون"[٤].

وهذا الجمع بهذا العدد الكبير يمكن مخاطبته في هذا العصر بوسائل كثيرة كالفضائيات والمذياع والمجلات والجرائد، وهذه الوسائل يستخدمها أعداء الله، فالواجب على المسلمين أن يستخدموها بضوابطها الشرعية ليقوموا بإيصال الدعوة لكل الناس.

الوقفة الثالثة

لا بد من اختيار الوقت المناسب للدعوة وإقامة الحجة

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ "والميقات : ما وُقت به ، أي : حُدّ من زمان ومكان . ومنه : مواقيت الحج"[٥].

وهذا الوقت هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه: ٥٨ – ٥٩]."وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم"[٦].

فهذا الوقت هو يوم إجازتهم فالكل سيحضر ولن يتخلف أحد سواء من السحرة أو من الناس.

---

(٢) أيسر التفاسير٣/١٠٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٠.

(٤) التحرر والتنوير١٩/١٢٥.

(٥) البحر المديد٥/٢٤٧.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٠.

الوقفة الرابعة

لا بد لكل اجتماع من هدف

قال تعالى عنه قول قوم فرعون:﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ذكر العلماء أهداف كثيرة لهذا الجمع الكبير، تتنوع من حيث الآتي:

أولاً: أهداف فرعون في جمع السحرة كلهم:

جمع فرعون وملأه السحرة للمكر والحيلة لموسى عليه السلام، فليس غرضهم إتباع السحرة، وإنما الغرض الكلي ألا يتبعوا موسى، فكلامهم حمل لهم على الاهتمام والجد في المغالبة [٧]، لأن قوم فرعون كانوا على دين فرعون، فغير معقول أن يقول من كان على دين: أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي اتبع ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي ازداد بصيرة بديني، فأقيم عليه[٨].

فقد نادوا الناس أن اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر[٩].

ثانياً: أهداف جمع الناس عند موسى عليه السلام:

كان هدف جمع الناس عند موسى عليه السلام ليظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم [١٠]. لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين [١١].

يقول الشيخ السعدي:"وهذا من لطف الله أن يري العباد، بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال، المضل أن ما جاء به موسى سحر، فجمعوا ليظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة، بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر[١٢].

ثالثاً: أهداف جمع الناس عند السحرة أنفسهم:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٤١- ٤٢].

---

(٧) البحر المديد٥/٢٤٨ بتصرف.

(٨) جامع البيان١٩/٣٤٧.

(٩) تيسير الكريم الرحمن٥٩١.

(١٠) اللباب لابن عادل١٥/٢٤.

(١١) فتح القدير٥/٣٠٧.

(١٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٠.

"ابتدءُوا بطلب الجزاء، وهو إما المال وإما الجاه فلبا لهم ذلك وأكّده بقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ فهاية مطلوبهم البذل ورفع المترلة "[١٣]، "وفي هذا إغراء كبير لهم على أن يبذلوا أقصى جهدهم في الانتصار على موسى عليه السلام "[١٤].

"وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده"[١٥]..

"وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم أعداء الإسلام دائماً في كل مكان وفي كل زمان .

فها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع ، وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه "[١٦].

فيجب أن يكون عند الداعية بصيرة بما يجمع وبما يجمع له، ويعرف أهداف أعدائه وطرقهم، وأن يخلص نيته وأهدافه الدعوية كلها لله .

الوقفة الخامسة

غرور أهل الباطل بباطلهم وعدم طلبهم الحق

قال تعالى عن قول ملأ فرعون: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

"فلم يكن لفرعون وملأه شك في أن السحرة غالبون. وهذا شأن المغرورين بهواهم عن النظر في تقلبات الأحوال أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم"[١٧]،"وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم"[١٨].

"وقال قائلهم: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ و لم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم"[١٩].

"فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب[٢٠].

---

(١٣) اللباب لابن عادل١٥/٢٤.

(١٤) أيسر التفاسير٣/١٠٤.

(١٥) التحرر والتنوير١٩/١٢٦.

(١٦) في ظلال القرآن

(١٧) التحرر والتنوير١٩/١٢٦.

(١٨) فتح القدير٤/١٤٢.

(١٩) تفسير القرآن العظيم٦/١٤٠.

(٢٠) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩١.

الوقفة السادسة

إقامة الحجة

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٣].

وإقامة الحجة كانت بعدد من الأمور:

أولاً: الوعظ قبل المناظرة:

"لما اجتمع السحرة للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم موسى وذكرهم وقال: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه: ٦١].فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضا ، قال تعالى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه: ٦٢ – ٦٣].

ثانياً: اطمئنان موسى لما معه من الحق:

فـ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، و لم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق" (٢١).

فيشير قول موسى " منذ البدء إلى اطمئنان موسى إلى الحق الذي معه؛ وقلة اكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك اللأمم المضللة المخدوعة. يتجلى هذا الاطمئنان في تركه إياهم يبدؤون "(٢٢).

قال ابن عاشور: "وفي كلام موسى عليه السلام استخفاف بما سيلقونه لأنه عبر عنه بصيغة العموم، أي ما تستطيعوه إلقاءه"(٢٣).

ثالثاً: أمره السحرة بإظهار كيدهم ليفسده:

قال تعالى في مواضع أخرى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه: ٦٦]، وكذلك: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وكذلك ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يونس: ٨٠].

" قَصْدُ موسى بذلك قَصْدٌ حسن يستوجبه المقام، لأن إلقاءهم قبله يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها

---

(٢١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩١.

(٢٢) في ظلال القرآن

(٢٣) التحرر والتنوير١٩/١٢٧.

لجميع ما ألقوا من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل. ولأجل هذا قال لهم: ﴿ أَلْقُوا۟ ﴾ ، فلو ألقى قبلهم وألقوا بعده لم يحصل ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى"[٢٤].

"فلم يبادر موسى بإلقاء عصاه أولاً لأن المسألة مسألة علم لا مسألة حرب ففي الحرب تنفع المبادرة بافتكاك زمام المعركة، وأما في العلم فيحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كر عليه بالحجج والبراهين فأبطله وظهر الحق وانتصر على الباطل، وهذا الأسلوب الذي اتبع موسى بإلهام من ربه تعالى"[٢٥] .

قال الشوكاني: " و لم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر ، بل أراد أن يقهرهم بالحجة ، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته "[٢٦].

الوقفة السابعة

الشرك بالله والاغترار بالنفس سبب الهزيمة

قال تعالى عن السحرة:﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قال السحرة بعد إلقائهم لعصيهم، لما رأوها تتحرك وتقبل وتُدبر : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾، قالوا ذلك؛ لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر، أقسموا بعزته وقوته ، وهو من أيمان الجاهلية[٢٧].

"أقسموا بعزة فرعون على أنهم يغلبون ثقة منهم باعتقاد ضلالهم أن إرادة فرعون لا يغلبها أحد لأنها إرادة آلهتهم"[٢٨]..

"فاستعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، و لم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون والمقسم عليه، أنهم غالبون"[٢٩].

"وأرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور نفس لأنهم يعلمون أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر وتأثيره على الناظرين" [٣٠].

---

(٢٤) أضواء البيان٤/٣٤.

(٢٥) أيسر التفاسير٣/١٠٥.

(٢٦) فتح القدير٤/١٤٣.

(٢٧) روح المعاني ١٩/٧٨.

(٢٨) التحرر والتنوير١٩/١٢٧.

(٢٩) تيسير الكريم الرحمن ص٥١٩.

(٣٠) التحرر والتنوير١٩/ ١٢٧.

الوقفة الثامنة

تأييد الله تعالى الحق بالمعجزات الحقيقية

قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٨ – ٥١].

"وقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فنهم الذي عاشوا به وأتقنوه؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده ، وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هي تلقف ما يأفكون؛ واللقف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلاً ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقاً . فلا تبقي لها أثراً . ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها. ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً"[٣١].

الوقفة التاسعة

الإسلام دين الحق ودين الفطرة

قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

فقوله تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أي "أنهم لاندهاشهم وما بهرهم من الحق ألقوا بأنفسهم على الأرض ساجدين لله تعالى مؤمنين به ، فسئلوا عن حالهم تلك فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾"[٣٢]، إنهم سجدوا لله تعالى " من غير تلعْثم ولا تردد، غير متمالكين لأنفسهم؛ لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر، وأنه أمر إلهي، يدل على تصديق موسى عليه السلام. فلما خروا سجوداً ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ : فدفع توهم إرادة فرعون؛ لأنه كان يدعي الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه منها "[٣٣].

"وكان هذا أمرا عظيما جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غَلَبًا لم يشاهد العالم مثله..فالقبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] "[٣٤].

---

(٣١) أيسر التفاسير٣/١٠٥.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) البحر المديد٥/٢٤٩.

(٣٤) تفسير القرآن العظيم ٦/١٤٠– ١٤١ باختصار وتصرف.

الوقفة العاشرة

الهداية بيد الله تعالى والله تعالى لا يعجزه شيء

قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٨ – ٥١].

إن القلب البشري لعجيب غاية العجب إذ أن السحرة "في أول النهار كانوا سحرة كفرة وفي آخره مؤمنون بررة"[٣٥]، فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء .. اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)[٣٦].

"فهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، و لم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية. ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلاً . لقد كانت هزة رجتهم رجاً، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان.

في لحظات قصار إذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً تتحرك ألسنتهم، فتنطلق بكلمة الإيمان على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه ، لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه فرعون من عواقب ونتائج، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول"[٣٧].

الوقفة الحادي عشر

عناد الكافرين

قال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٣] .

"لا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه. فالجماهير حاشدة. ثم هاهم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته ، ثم يغلبون حتى ليقرون بصدق موسى في رسالته، ويؤمنون برب العالمين، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته، وانتظروا أجره، واستفتحوا بعزته ..ها هم أولاء يؤمنون والجماهير في ذلك الوقت تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها، فماذا يبقى لفرعون من سند "[٣٨].

---

(٣٥) السراج المنير٣/٤٣.

(٣٦) صحيح مسلم كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء برقم(٦٩٢١).

(٣٧) في ظلال القرآن٥/٣٤٧.

(٣٨) نفس المرجع السابق.

"وهنا خاف فرعون تَفَلُتَ الزمام من يده وأن يؤمن الناس بموسى وه ارون ويكفرون به فقال للسحرة: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي كيف تؤمنون بدون إذني؟"(٣٩).

" فلم يأمن فرعون أن يقول قومه : إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى – عليه السلام – فيسلكون طريقهم ، فلبَّس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى فقال لهم ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي أنه لما كان أستاذكم تواطأتم معه على الغلب فأظهرتم أنه غلبكم، تمويهاً وتضليلاً للناس "(٤٠).

" فهذا تعريض منه بأنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى، ليظهروا أمر موسى، وإلا ففي قوة السحر أن يفعلوا مثل ما فعل، وهذا شبهة قوية في تنفير من قَبِلَ"(٤١).

قال ابن كثير: "وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل(٤٢).

قال الشوكاني" وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الربّ"(٤٣).

الوقفة الثانية عشر

سنة الابتلاء وثبات المؤمنين

قال تعالى عن قول فرعون للسحرة: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

"فقد جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال ، بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى!

يقول: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ قال ابن جرير: أي: "مخالفا في قطع ذلك منكم بين قطع الأيدي والأرجل، وذلك أن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى والرجل

---

(٣٩) أيسر التفاسير٣/١٠٥.

(٤٠) البحر المحيط ٧/ ١٦.

(٤١) السراج المنير٣/٣٥.

(٤٢) تفسير القرآن العظيم٦/١٤٠.

(٤٣) فتح القدير٥/٣٠٨.

اليمنى[٤٤]، ثم قال: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: "فلا أبقي منكم أحداً إلا أشده على خشبة حتى يموت مصلوباً "[٤٥]، ووكد ذلك بـــ ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ إعلاما منه أنه غير مُسْتَبْقٍ منهم أحدا"[٤٦].

ولكن ماذا كان من أهل الإيمان من هذا التهديد:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

وقال تعالى في سورة طه: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه: ٧٢].

قال ابن كثير:" ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ ﴾ أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان" [٤٧].

قال ابن جرير:" إنا نرجو أن يصفح لنا ربنا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها ، لأن كنا أوّل من آمن بموسى وصدقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادعائه الربوبية في دهرنا هذا وزماننا"[٤٨].

---

(٤٤) جامع البيان١٩/ ٣٤٩.

(٤٥) أيسر التفاسير٣/١٠٥.

(٤٦) جامع البيان١٩/ ٣٤٩.

(٤٧) تفسير القرآن العظيم٦/١٤١.

(٤٨) جامع البيان ١٩/ ٣٤٩.

قائمة المراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي -دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت — لبنان- الطبعة : ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م
- البحر المحيط- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م- الطبعة : الأولى.
- البحر المديد - أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس- دار الكتب العلمية ـ بيروت - الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٣ هـ
- التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
- تفسير السراج المنير- محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين- دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تحقق :سامي بن محمد سلامة- دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي - عبد الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة - الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- جامع البيان في تأويل القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ)- تحقيق: أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم - أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري- دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - محمود الألوسي أبو الفضل - دار إحياء التراث العربي — بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير- محمد بن علي الشوكاني.
- في ظلال القرآن- سيد قطب- دار الشروق- القاهرة- ط٣٥(١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م).
- اللباب في علوم الكتاب- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م- الطبعة : الأولى.